المقامة الحيدريه

(حدث الراشد بن يقظان قال) ملات السكون والراحة . وأحببت التنقل والسياحه . فطفقت أطوف البلدان والامصار . وأرود الاماكن وأجوس خلال الديار . الي أن وصلت مدينة القاهرة أم العجائب . ومقر البدائع والغرائب . وكانت ليلة من ليالي الشتاء . كثيرة المطر باردة الهواء . يشق برقها كبد السماء . ويدوى رعدها فى وسيع الفضاء . فعزمت على التجول في أرجائها لاختبار مناخها وأبنائها . وقضيت الليل سائرا فى الازقة بين اطلال . متنقلا من حمأ الى أوحال . الى أن عاقتني بركه . قد ملأت السكة . فرأيت تجمهر الصفوف . واحتشاد الوقوف . وقناطر كالمقطره . عليها المارة مستنفره وألواحا مرفوعه . وأحجارا موضوعه . وسائر الجمهور . يتأهب للعبور . فكلما مرت غانيه . على قنطرة متداعيه . حذرت السقوط فتمايلت على جانبيها . وخافت البلل فكشفت عن ساقيها . والعامة من ذلك يضحكون ويصفقون . ويسخرون ويتغامزون . ثم شاهدت ثلة منهم تغالت فى الضوضاء . وتبعثرت فى الماء . وبينهما هم في البحيرة يخوضون . وبأناشيدهم البذيئة ينشدون . اذ عبرت اللجة مركبة أطارت الرشاش عليهم مدرارا . وملأت ملابسهم أقذارا . فأحدقوا بالسائق وقد تحول نظرهم اليه . وأمطروا سحائب غضبهم عليه . يوسعونه شتما وسبابا . ووعيدا وارهابا . فلما هم ان يضربهم بسوط سلطته . ويذيقهم مرارة صولته . تغيظ منه أحد الحمارين فاندفع يوالى عليه الهجمات . ويصفه بأقبح الصفات . فأنكرت حماقتهما . واستعظمت وقاحتهما . واذ خفت سوء العواقب . وانقضاض النوائب . توليت الى مكان . أكون به في أمان . واذا بالخصمين قد اقترب الواحد من الآخر وراقت وجوههما .

وانخفضت أصواتهما. فرأيت مسالمين بعد الغضب. وآمنين بعد خوف العطب. يتماحضان النصح ويتلاطفان. ويظهران الندم ويتعاتبان. ثم تباعدا واستأنفا العدوان. وما زالا كذلك برهة من الزمان. يتباعدان فيتخاصمان. ويتقاربان فيتصالحان. وقد طال الحال على هذا المنوال. بين مشاحنة وجدال. ومخاصمة ولا نزال. حتى سئمت من استمرار القصه. وندمت على فوات الفرصه. فواصلت سيري وأنا حائر في أمري. وعزمت على الاستكنان في مأوي. أجد فيه بعض السلوى. فبينما أنا أتعثر في مشيتي. وأجد في طلب بغيتي. اذ شاهدت حفرة تؤدي الي سرداب. وفي ذلك السرداب باب. فلويت على هذا المدخل الصغير. والمكان الحقير. فرأيت آباريق صفراء. وكوانين ذات نار حمراء. وأسرة ممدوده. وكراسي منضوده. وأشكالا على الجدران مصوره. تمثل فارسا وقسوره. وكفاو مبخره. وفي النادي اخوان مجتمعون. وأخدان متصافون. بين قاعد القرفصاء. ومستلق بهيئة الكبرياء. ومسند خده بكفه. وملق رأسه على كتف الفه. وكان بمحاذاة الباب. جماعة من الاصحاب. قعود على التراب. والكل يستضيئون بسراج لا وضاء ولا وهاج. وهم كمشكاتهم هادئو البال. ساكنو البلبال. مجردون عن الادراك. اذا أبصرتهم لم تر بهم من حراك. وكأني بهم لا يفرقون بين الليل والنهار. مشتملين بالسكوت مسترسلين في الاذكار. فألممت بهم خفي الالمام. وابتدرتهم بالسلام. فلقيني فريق بالترحاب. وقابلني فريق بالاستغراب. فلما تبوأت مقعدي. وبلغت من الراحة مقصدي. استفهمت من جاري، عما هو جاري. فعرفني انهم يفدون جوزة حياتهم. بجوزة لذاتهم. وبينما نحن نتجاذب أطراف السؤال والجواب. وصاحبي يفهمني بكل اطناب واسهاب. اذ استوى أحدهم قاعدا. بعد أن كان متوسدا. ثم قال منشدا

قم حينا ياصبوه * بجوزة وقهوه
وأجل لنا صهباتنا * فليس عنها سلوه
وندها بمائها * وضع عليها الجذوه
وابسطوا يارفقتي * فذا زمان النشوه
كم عامل مجتهد * ناء بوقر الشقوه
ولم يؤب من سعيه * بذرة من ثروه
وكم كسول يغتدى * وسعده في الذروه
تلك حظوظ قسمت * فاقنع تفز بالحظوه

وعندئذ سمعت زمرا فى الخارج فهب المنصتون مذعورين . وهرعوا نحو الباب مع الخطيب مهرولين . يصيحون ثلة بعد ثلة . ياحرامى اخله . فاقتفيت أثرهم . لاعرف أمرهم . فرأيت ساعي البرق يتخبط فى الوحل على عجل . ويمشي في الطين على مهل . وقد ضحكوا منه طويلا . ومثلوا بمنظره تمثيلا . ثم قفل كل منهم الى جحره . واسترسل المحدث فى شعره فقال

فلنبق دوما هاهنا * عشية وضحوه
ولنلق مايثقلنا * من عيلة ونسوه
هنا الصفاء كله * نحن عليه اخوه
قم يا امام وأنتنى * بجوزتى ياصبوه

فما كاد داعى الخمول يأتى على آخر خطابه . وينتهى من نثر غرر جوابه . وعرض درر وطابه . حتى أقبل عليه السامعون من كبير وصغير . يداعبونه لكزا ويدعونه بيا أمير . فوددت استطلاع الخبر . ودققت نحو الخطيب النظر . فاذا هو صديقي . تنفل بن ثعلبة الاغريقى . هذا وقد قام

صاحب القهوة يرص الدخان أحكم رص . ويضع القص فوق القص . ثم دار عليهم بجوزته فملا الدخان وانتشر . وتغيرت الوجوه واستحالت الصور . ففريق يتفل . وفريق يسعل . وفريق يظهر بهيئة المحتضر . وفريق يتغنى بتثاؤبه ويسبطر . وقد تظاهر تتفل بحالة النعسان ، فتشبه به الجميع مغمضي الاجفان. حتى اذا ملكوا الكرى العنان . ولم يبق فى القهوة انسان . سوى تتفل وابن يقظان . نهض ابن ثعلبة كالعتريس . وجرد القوم عن كل غال ونفيس . فسعيت في ارجاعه . واجتهدت في اقناعه . فلم يعبأ بمقالي . ولا نفعت ضراعتي وابتهالي . فصحت عندئذ لعل أحد الموجودين يستفيق ويهب من نومه العميق . فاذاهم أموات . لاتوقظهم النازلات . وانسل تتفل بعد ماقضي وطره . فخرجت أقتفي أثره . حتى أدركته فى رحبة وسيعه . تحيط بها دور مشيدة وقصور رفيعه . فرأيت أشجارا وغياضا . وانوارا وحياضا . وأرضا خالية عن الاقذار . كأن لم تصل اليها الامطار . فوقفت عندئذ مستغربا . ثم قلت له مؤنبا . ايها المحال ماحرم الله . المغرور بماجنت يداه . هل تستحسن ماأتيت ، وهل ينفعك ماجنيت . فقال

يا صاح كم ذا تؤنب * وكم تلوم وتعتب
تولي المسيئين سترا * وللمحبين تثلب
خبرت ذا الناس عمرا * خبر الاريب المجرب
فالنصح فيهم عقيم * وطبعهم متغلب
ومالهم من مرب * ومالهم من مؤدب
ولاشجاهم وصول * أو همهم متغيب
وكلهم متناه * وكلهم متقلب